الاتصال التعايشي وإدارة الاختلاف من صدام الحضارات إلى ثقافة العيش المشترك

Coexistent communication and managing difference from the clash of civilizations to the culture of coexistence

الأستاذ: قواسم بن عيسى
أستاذ محاضر أ
جامعة: الطاهر مولاي -سعيدة
البريد الإلكتروني:gouacemb84@yahoo.fr

ملخص:

رغم أن مفهوم الاتصال التعايشي جديد نسبيا من الناحية الاصطلاحية، إلا أنه من حيث الممارسة قديم قِدم الحضارات البشرية، وقد أضحى في الوقت الراهن ضرورة حتمية لإدارة الاختلاف حتى لا يتحول إلى خلاف، وسواء تمظهر الاتصال التعايشي في سلوك المصافحة أو تبادل الابتسامة بين شخصين مختلفين في الدين أو اللغة أو لون البشرة أو الثقافة...إلخ، أو تم عبر التكنولوجيات الجديدة للإعلام والاتصال وفي مقدمتها شبكات التواصل الاجتماعي، فإنه يهدف في النهاية إلى تسويق القيم الإنسانية العالمية مثل التسامح والاحترام المتبادل والاعتراف بالآخر، ونبذ التعصب والكراهية والعنف... إلخ، وصناعة خطاب إعلامي هادف يساهم في نشر ثقافة العيش المشترك التي تقي المجتمعات من مخاطر الصراعات وويلات الحروب والنزاعات، وتفتح جسورا للحوار بين الحضارات وتبادل الثقافات، دون أي إقصاء أو احتقار أو تصادم.وتعتبر هذه الورقة البحثية محاولة للاقتراب من مفهوم التعايش من زاوية علوم الإعلام والاتصال من خلال معالجة إشكالية الاتصال التعايشي ودوره في إدارة الاختلاف مع الآخر وانعكاس ذلك على ترسيخ قيم العيش المشترك.

الكلمات المفتاحية: الاتصال التعايشي -إدارة الاختلاف-ثقافة العيش المشترك -حوار الحضارات

Abstract:

Although the concept of coexistence communication is relatively new as a term, it is old in practice and rooted in human civilizations, it has become an imperative today to manage difference and diversity in order not to turnin to a conflict, whether coexistence communication appears in the handshake behavior, or in smile exchange between two different people in religion, language, skin color, culture... etc, or it was done through new information and communication technologies, especially via social media, ultimately, it aims to spread universal human values, such as tolerance, mutual respect and recognition of the other, and reject bigotry, hate, violence...etc, and making meaningful media speech, that contributes to spreading the culture of coexistence, which protects societies from the dangers of conflicts and wars, and opens bridges for dialogue between civilizations and exchange of cultures, without any exclusion, contempt or collision ; this research paper is an attempt to approach the concept of coexistence through information and communication sciences, by addressing the problematic of coexistence communication and itsrole in managing differences with the other, and its reflection on the consolidation of the values of coexistence.

Key words: Coexistence communication- Difference management- Culture of coexistence- Dialogue of civilizations

تقديم:

يعتبر التنوع والاختلاف ناموسا كونيا وسنة وجودية من سنن الخالق عز وجل، ليس لدى البشر فحسب، بل حتى لدى باقي المخلوقات الأخرى، فالحيوانات والطيور والحشرات ليست على أشكال وألوان واحدة، والخضر والفواكه باعتبارها جزءا من عالم النبات ليست هي الأخرى ذات شكل ولون وذوق موحد، بل إننا نجد في الصنف الواحد من الخضر أو الفواكه ألوانا وأشكالا وأذواقا مختلفة،ونفس الأمر ينطبق على الجمادات، وفي عالم البشر لا توجد نسخة مكررة مائة بالمائة لنفس الشخص، حتى لدى التوائم المتطابقة، فعلى الرغم من أن التوأمين المتطابقين يمتلكان نفس المواصفات الشكلية والمكونات الجينية، إلا أنهما يختلفان في بصمات الأصابع وفي بعض التفاصيل الجزئية الأخرى من النواحي الجسدية والنفسية والاجتماعية...إلخ.

إن التنوع والاختلاف في الحياة والكون عموما، سواء كان بيولوجيا أو إيكولوجيا أو ثقافيا أو فكريا... هو مصدر من مصادر العبقرية والتطور والإبداع العلمي والتكنولوجي والفني، لذا تراهن عليه كثير من الدول المتقدمة في تحقيق التفوق والتميز والصدارة مثل كندا والولايات المتحدة الأمريكية وغيرهما من الدول التي تفتح أبوابها سنويا لهجرة مختلف جنسيات العالم إليها، وتسمى التأشيرات التي تمنحها هذه الدول بـ "تأشيرة هجرة التنوع"، وهذا دليل على أن التنوع والاختلاف فضلا عن كونه سنة كونية كما ورد في الآية الكريمة "ومن آياته خلق السماوات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم، إن في ذلك لآيات للعالمين"[1] (بقراءتين: كسر لام العالمين وفتحها)، فإنه أحد أسباب إحراز القوة والهيمنة، وقد ورد في بعض الآثار الإسلامية أن الاختلاف رحمة، بل اعتبره القرآن الكريم هو علة الوجود في قوله تعالى: "ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم"[2]، أي للاختلاف خلقهم.

ونظرا لأن التماثل والتشابه يثير في الإنسان أحيانا الشعور بالرتابة والجمود والملل من الناحية النفسية، فإن الفرد يسعى في كثير من الأحيان إلى أن يكون مختلفا عن الآخرين ومتميزا عنهم، رغم أنه يفضل أن يشابههم في أحيان أخرى، ومن الناحية الاقتصادية فإن الاختلاف والتنويع في عرض السلع يعتبر آلية من آليات الجذب والتسويق التجاري نظرا لاختلاف أذواق المستهلكين، وهذا ما تؤكده المقولة الاقتصادية الشهيرة "لولا اختلاف الأذواق لبارت السلع"، ورغم المزايا العديدة والإيجابيات الخلاقة التي يحملها التنوع والاختلاف للأفراد والمؤسسات والمجتمعات على حد سواء، إلا أنه لا يخلو من المخاطر والتهديدات الهدامة التي يمكن أن تكون سببا في التمزق والتشرذم والتناحر إذا لم تتم إدارته وتسييره بشكل جيد، ونظرا لأهمية التنوع والاختلاف وخطورته في نفس الوقت، فقد تم إخضاعه للدراسة والتحليل من قبل الباحثين في مختلف العلوم والتخصصات الفكرية، حتى نشأ علم قائم بذاته يسمى "علم إدارة التنوع/الاختلاف"، يتناول في أدبياته بالتحليل والدراسة ظاهرة التنوع والاختلاف بين الأفراد والمجتمعات والحضارات وأثرها على مختلف النشاطات البشرية وعلى حياة الإنسان بشكل عام.

ومن أجل أن يحقق التنوع والاختلاف نتائج إيجابية للفرد والمجتمع، وحتى لا يتحول إلى صدام مدمر بين مختلف الحضارات واللغات والديانات والثقافات والهويات...إلخ، لا بد من تكريس ثقافة العيش المشترك، والتي يعتبر الاتصال الجيد بأخلاقياته وجمالياته وآدابه أحد أهم مقوماتها، لأن جودة الاتصال بين الأفراد المختلفين في انتماءاتهم اللغوية والدينية والفكرية والحضارية يمكنها أن تجنبهم

[1] سورة الروم، الآية 22.

[2] سورة هود، الآية 119.

مخاطر العنف الذي يمكن أن يتطور إلى نزاعات مسلحة وحروب أهلية، وهو ما اصطلح على تسميته في هذا البحث بـ "الاتصال التعايشي" الذي يعتبر آلية إستراتيجية من آليات إدارة الاختلافات وتجاوز الخلافات، وتحقيق التفاهم والانسجام والتعاون المشترك، والتحول من مفهوم صراع الحضارات الذي ينذر بفناء البشرية إلى مفهوم حوار الحضارات، الذي يجسد فكرة العيش المشترك بسلام بين الأفراد والجماعات والأمم المختلفة والمتنوعة اثنيا ودينيا وجغرافيا ولغويا وثقافيا...إلخ.

تعتبر هذه الورقة البحثية محاولة لفهم طبيعة الاتصال التعايشي ورهاناته الاستراتيجية في إدارة التنوع والاختلاف بين الأفراد، وفي تجسيد ثقافة العيش المشترك داخل الحضارات وفيما بينها.

تعريف التعايش لغة:

قال ابن فارس: العين والياء والشين أصل صحيح يدل على حياة وبقاء، وقال الخليل: العيش: الحياة، والمعيشة: الذي يعيش به الإنسان من مطعم ومشرب، وما تكون به الحياة، والعيش المصدر الجامع، وكل شيء يعاش به أو فيه فهو معاش، قال تعالى: "وجعلنا النهار معاشا"[3]، ورجل عائش إذا كانت حاله حسنة[4].

وفي المعجم اللغوي يعني الفعل عاش يعيش عيشا وعيشة ومعاشا ومعيشة الإنسان أو الشيء: صار ذا حياة فهو عائش[5]. والتعايش لغة مشتق من الفعل تعايش يتعايش تعايشا القوم: عاشوا بالمودة.

وهو العيش في كنف المودة والألفة والملاءمة بين النزعات والمذاهب المختلفة، والتعايش السلمي هو حب ضمان العيش في ظل السلم بين طرفين، مثلما كان عليه الأمر بين معسكري الرأسمالية والشيوعية[6].

كما يشير التعايش إلى قيمة العيش المشترك مع الآخرين، ولا يكون ذلك إلا بوجود الألفة والمودة، ولا يعيش الإنسان مع غيره إلا إن وجد بينهما تفاهم ورغبة في عيشة مشتركة لحمتها الألفة وسداها المودة والثقة[7].

فمعاني التعايش في اللغة العربية عموما تشير إلى الحياة، السلام، المودة... وغيرها من الصفات الجميلة.

---

[3] سورة النبأ، الآية 11.

[4] حسين علي المصطفى، أدبيات التعايش بين المذاهب، بيسان للنشر والتوزيع والإعلام، بيروت، ط2، 2013، ص 15.

[5] علي بن هادية وآخرون، القاموس الجديد للطلاب، الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، ط7، 1991، ص 636.

[6] نفس المرجع، ص 200.

[7] هاني المبارك، شوقي أبو خليل، الإسلام والتفاهم والتعايش بين الشعوب، دار الفكر المعاصر، بيروت، 1996، ص12.

والتعايش في مدلوله العام الاصطلاحي المعاصر يعني أن يعيش البعض مع البعض الآخر المختلف، وأن يكون هذا العيش المتبادل قائما على المسالمة، وهو ما يؤكده الوصف الذي غالبا ما يستعمل مرتبطا به حين ينعت بـ "السلمي"، والمسالمة تعد قيمة كبرى في الحضارة الإسلامية نابعة من السماحة باعتبارها معلما جامعا يطبع مختلف جوانبها العقدية والتشريعية والسلوكية[8].

أهمية التعايش:

إن عالمنا اليوم في أشد الحاجة إلى التسامح الفعال والتعايش الإيجابي بين الناس أكثر من أي وقت مضى، نظرا لأن التقارب بين الثقافات والتفاعل بين الحضارات يزداد يوما بعد يوم بفضل ثورة المعلومات والاتصالات والثورة التكنولوجية التي أزالت الحواجز الزمانية والمكانية بين الأمم والشعوب حتى أصبح الجميع يعيش في قرية كونية صغيرة[9].

إن التفاهم والتعايش لا يقومان بين طرفين مختلفين في الفكر والعقيدة إلا إذا توافر لدى كل منهما رغبة في العيش المشترك وتسامح حول الأمور المختلف فيها، وقبول من الطرفين بالتعددية الفكرية والعقائدية، ولا يكفي أن يؤمن بالتعايش والتسامح طرف واحد بينما ينكر الطرف الآخر أو الأطراف الأخرى ذلك وتأباه. وكيف لنا أن نتصور قيام تعايش بين إنسان راغب فيه ومؤمن بوجوبه، وصادق مخلص في سلوكه إليه، وبين آخر تأبى عقيدته ذلك، كأن يعتقد بأنه من أمة تفضل جميع الأمم ودماؤها صافية راقية وعرقها أنبل العروق، وعبقريتها فوق كل عبقرية؟ ويقول إن أمتي فوق جميع الأمم؟ أو أن يقول إن شعبي خلقه الإله ليكون سيد الشعوب، وأن جميع الشعوب خلقت لخدمة ذلك الشعب المختار؟[10]

كيف يمكن لإنسان سوي في تفكيره، إنساني في نظرته، متسامح في سلوكه أن يعيش أو يتعايش مع هذا النمط من الناس؟ نحن في هذه الحالة أمام أقوال مرفوضة إنسانيا ومنطقيا، ولا يمكن التعايش مع أصحابها إلا بذل وهوان، وهذا ما يرفضه كل إنسان[11].

لا يمكن لمشروع التعايش أو العيش المشترك أن يتأسس إلا من خلال مقاومة علاقات الغلبة والغطرسة والقوة الغاشمة التي تصبغ حياة الإنسان الحيوانية، وأن نعتمد بمقتضى ذلك مبدأ التنوع الذي يزيح تصور المركزية جانبا، وبخاصة الرأسمالية بعد سقوط الشيوعية، وبالتالي الإمبريالية

[8] عبد الله جبر عليوي جبر الخطيب، الإسلام والتعايش السلمي، ذار الكتب والوثائق، بغداد، ط1، 2017، ص 27.

[9] حسين علي المصطفى، مرجع سابق، ص 17.

[10] هاني المبارك، شوقي أبو خليل، مرجع سابق، ص 13.

[11] نفس المرجع، ص 14.

المتعالية والعنيفة بمؤسساتها المدمرة. والمعنى أن نؤسس لمفهوم جديد للإنسانية لا مكان فيه للتعالي الغربي، وذلك عبر إقرار قاعدة الاختلاف والانفتاح على الغير. إن الحق في الاختلاف هو حق لكل فرد في المجتمع، ولكنه لا يعبر مطلقا عن انعزال عنه، بل هو حق مع الغير من أجل تعايش حر يقبل التنوع الثقافي من حيث هو واقعة بديهة للحداثة والتواصل بين الثقافات، ومن حيث هو غاية التعايش بطريقة متبادلة وبتأثير متبادل من غير هيمنة لطرف معين[12].

إن الحياة المشتركة مع الآخرين تحتاج من جميع الأطراف فيها قبولا بتعايش فيه عدل ومساواة، أي فيه تسامح فيما اختلف فيه لدى تلك الأطراف، واحترام متبادل من كل طرف للطرف الآخر على قاعدة تقول: نتفاهم حول ما اتفقنا فيه، ويعذر بعضنا بعضا فيما اختلفنا فيه، وعندئذ تنجح عملية التعايش والتفاهم بين الأفراد في المجتمع الواحد، وبين الشعوب المختلفة[13].

التعايش في الإسلام:

إن مبدأ التعايش والتسامح والتفاهم مع الآخرين على اختلاف قومياتهم وعقائدهم وألوانهم هو جزء من عقيدة المسلم، فهو كصلاته وصيامه وجميع عباداته يقوم على إيمانه بالوحدة الإنسانية، لأن الناس كلهم عيال الله، فالمسلم يعيش في أسرة كبيرة خلقها الله ليتعايش ويتعارف أفرادها، والمسلم ملتزم بذلك لأنه يتلو في قرآنه الكريم قوله تعالى "يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم"[14].

إن التفاهم والتعايش بين الشعوب والاعتراف بالآخر موضوع مطروح في ساحة الحوار، فهو من موضوعات العصر، إنه موضوع جديد بالنسبة للغرب، ولكنه جزء من عقيدة المسلم، وأس من أسس دينه الذي اكتمل منذ أكثر من ألف وأربعمائة سنة، منصوص عليه في كتاب المجيد والسنة المطهرة، وطبق واقعا على مر أعصر التاريخ الإسلامي بدليل وجود غير المسلم في المجتمعات الإسلامية بين المسلمين، يعيش بسلام وطمأنينة على نفسه وأهله وماله وعرضه ودينه، مع الاحترام لعاداته وشريعته ونبيه ودينه عامة[15].

فالتعايش بين الأديان في الحقيقة هو تعايش بين الثقافات والحضارات، وهو أشد إلحاحا في هذا القرن إذا بني على أساس سليم يدفع بالتعايش بين الأديان نحو الاتجاه الصحيح الذي يحقق ما دعا

[12] أمال علاوشيش، من الصدام إلى العيش المشترك، مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة حسيبة بن بوعلي، الشلف، العدد 31، ديسمبر 2017، ص 110.

[13] هاني المبارك، شوقي أبو خليل، مرجع سابق، ص 14.

[14] نفس المرجع، ص17.

[15] نفس المرجع، ص 86.

إليه القرآن من رفض للطغيان والجبروت والكبرياء وفرض الهيمنة بالإخضاع بالقوة مما قد يؤدي إلى الفوضى في العالم، وليكن التعايش من أجل الخير والفضيلة وما فيه مصلحة الإنسان في كل الأحوال[16].

ومن هذا الجانب السلوكي وما يتفرع عنه من أبعاد ترتبط بالإسلام في شموليته وكماله، ينبثق التعايش سمة مميزة تطبع المجتمع الذي يدعو الإسلام إلى تحقيقه، والتعايش يهدف إلى تحقيق مجتمع لا ضيق فيه ولا تعصب ولا غلو ولا تطرف، ولا عنف ولا إرهاب، سواء مع الذات أو مع الآخر[17].

إدارة الاختلاف:

يقول الراغب الأصفهاني: "الاختلاف والمخالفة أن يأخذ كل واحد طريقا غير طريق الآخر في حاله أو قوله، والخلاف أعم من الضد، لأن كل ضدين مختلفان وليس كل مختلفين ضدين"[18].

ومع سنة وقانون التعددية في الشعوب والأمم والقبائل، فإن الأصل هو تنوع الإنسانية في الألسنة واللغات ومن ثم في القوميات وكذلك في الأجناس والألوان، وهو تنوع يبلغ مرتبة "الآية" من آيات الله، "ومن آياته خلق السماوات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين"[19].

وقد أثبتت الدراسات السيكو اجتماعية أن القدرات العقلية للفرد لا يمكنها أن تتطور إلا مع الآخر المختلف، أي في ظل التدافع المعرفي والجدال العلمي بوصفه المجال الأفضل للتطور الذهني والمعرفي، وتؤكد نتائج الأبحاث الميدانية في مجالي التربية وعلم النفس أن التقدم المعرفي وإثراء الفكر لا يحصل إلا إذا وجد الأفراد أنفسهم في وضعيات اختلاف ومواجهة مع أفراد متنوعي المستويات والتوجهات[20].

فاختلاف الأمم في أمزجتها النفسية والعقلية يجعل كل واحدة منها تتصور الوجود بصورة خاصة بها، وينشأ عن ذلك شدة اختلافها في ثلاثة أمور: في الحس أو الشعور، في العقل أو التمييز، وفي العمل أو السير. ومن غير الطبيعي النظر إلى هذا الاختلاف على أنه ظاهرة مرضية يجب القضاء عليها، لأن كل محاولة لإلغاء الآخر لن يكتب لها النجاح كما حدث للتجربة الشيوعية التي حاولت بكل ما أوتيت من

[16] عبد الله جبر عليوي جبر الخطيب، مرجع سابق، ص 26.

[17] نفس المرجع، ص 37.

[18] حسين علي المصطفى، مرجع سابق، ص 270.

[19] محمد عمارة، الإسلام والآخر، من يعترف بمن ومن ينكر من؟ مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ص 18.

[20] نفس المرجع، ص 271.

وسائل قمع أن تلغي كل ما هو غير شيوعي، فكانت النتيجة انهيار كل ما هو شيوعي، وبقاء الآخر المخالف صامدا[21].

فالأصل في الحوار الاختلاف، ولا نتحاور إلا ونحن ضدان، لأن الضدين هما المختلفان المتقابلان، والحوار لا يكون إلا بين مختلفين متقابلين هما: (المدعي) وهو الذي يقول برأي مخصوص ويعتقده، و(المعترض) وهو الذي لا يقل بهذا الرأي ولا يعتقده، بشرط ألا يخط له خطا يفصل بينه وبين باقي الأفكار بحجة أنه هو الذي ينتج الفكر ويستحق أن ينتجه، وسواه لا يستحق ذلك، ولا يفتأ يثبت أنه على حق فيما يعتقد أن غيره على باطل[22].

ليست المشكلة في أننا لا نعرف كيف نتفق، بل في أننا أصبحنا ننتج الخلاف، ولا نعرف كيف نختلف، ولا نحسن إدارة خلافاتنا، لأننا إذا تعلمنا كيف ندير خلافاتنا فإنها لن تتحول إلى شيء يهدم حياتنا وحضارتنا، بل نشق من خلالها الطريق نحو ما نلتقي عليه ويفتح العقل على الحوار فيما نختلف فيه[23].

تعريف الاتصال التعايشي:

هو عملية تفاعلية دينامية مستمرة يتم فيها تبادل المعلومات والأفكار والمعاني والرموز والإشارات بين طرفين على الأقل، يكونان مختلفين في اللغة أو الدين أو العادات أو الأفكار...إلخ، في جو من الاحترام المتبادل والتعاون دون أن يقصي أو يحتقر أحدهما الآخر، أو أن يعتدي أحدهما على الآخر، سواء بين أفراد ينتمون إلى نفس المجتمع، أو بين أفراد إلى مجتمعات مختلفة، بهدف أن يعيشوا معا حياة مشتركة يسودها الأمن والطمأنينة والسلام، بدون أي عنف أو صدام، ويمكن لهذا النوع من الاتصال أن يتم بشكل مباشر وجها لوجه، أو باستخدام وسائل الإعلام والاتصال المختلفة، مثل الإذاعة والتلفزيون والإنترنيت وشبكات التواصل الاجتماعي...إلخ.

الاتصال التعايشي الذاتي:

قبل أن يتعايش الإنسان مع الآخر المختلف عنه، ينبغي عليه أولا أن يمارس ما يمكن أن نسميه الاتصال التعايشي الذاتي، والذي يقصد به قبول الذات أولا والتعايش معها والاعتراف بها كما هي، والتواصل معها ومحاورتها ومسالمتها، وعدم إيذائها أو احتقارها أو الاعتداء عليها، وينطبق هذا النوع

[21] حسين علي المصطفى، مرجع سابق، ص 273.

[22] نفس المرجع، ص 276.

[23] حسين علي المصطفى، مرجع سابق، ص 285.

من الاتصال على مختلف الكيانات سواء كانت شخصا أو جماعة أو مؤسسة أو أمة، فقبل أن تتعايش الأمم مثلا فيما بينها، لا بد أن تتعايش المكونات والأنساق الداخلية لكل أمة فيما بينها أولا.

الخطاب التعايشي في وسائل الإعلام:

تبدأ ممارسة الاتصال التعايشي أولا بشكل مباشر وجها لوجه بين أفراد المجتمع، الذين تختلف معتقداتهم وأفكارهم وانتماءاتهم السياسية والدينية واللغوية والثقافية...إلخ، حيث أن الحركات الجسدية والإيماءات وتعبيرات الوجه... وغيرها من أنواع الاتصال الجسدي هي التي تعكس مدى وجود تعايش في أوساط المجتمع، فإذا وجدت نظرات الاحتقار والكراهية والعدوانية بين أفراد المجتمع المختلفين لغويا أو دينيا أو ثقافيا... فهذا مؤشر على غياب الاتصال التعايشي في المجتمع، ويمكن أن يتطور ذلك إلى اتصال عنيف سواء بشكل لفظي أو نفسي أو جسدي من خلال الضرب والاعتداء، ويمكن أن يصل في أسوأ الحالات إلى التصفية الجسدية.

تعاني الجاليات المهاجرة التي تعيش في المجتمعات الأوربية من غياب أو على الأقل ضعف الاتصال التعايشي بشكل يومي، حيث أن النظرات المحمّلة بالعنصرية والحقد والمشحونة بالكراهية والخوف من الآخر تطاردهم في كل مكان، كما أنهم يسمعون أحيانا بعض العبارات العدوانية والعنصرية، مثلما حصل لكثير من اللاعبين من أصول غير أوربية الذين يلعبون في النوادي الغربية، حيث اضطر كثير منهم إلى مغادرة الملعب وعدم إكمال المباراة بسبب سماعهم لهتافات عنصرية تعكس غياب الاتصال التعايشي لدى فئة كبيرة من الجماهير الأوروبية.

وبالنسبة لوسائل الإعلام الغربية، فإن خطابها الذين يتناول المواضيع المتعلقة بالآخر (يكون غالبا الإنسان العربي و/أو المسلم) ينقل صورة نمطية تزيد من تأجيج مشاعر العدوانية والكراهية والحقد لدى الشخص الغربي تجاه الإنسان العربي، الذي أصبح يعاني من الإقصاء والتهميش والبطالة بسبب الخطاب العنصري الذي تسوقه وسائل الإعلام الغربية، فكل إنسان مسلم لديها هو أرهابي، وكل إرهابي مسلم، ولا يتردد الخطاب الإعلامي الغربي في نعت الحضارة العربية والإسلامية بكل النعوت والأوصاف السيئة والقبيحة، والتي لا تمت للإسلام والعروبة بصلة مثل وصف العرب بأنهم وحوش، همج، قتلة، متعطشون للدماء، قذرون...إلخ.

إن تسويق صورة نمطية مشوهة عن العرب والمسلمين في وسائل الإعلام الغربية يدل الحاجة الملحة إلى ضرورة تفعيل الاتصال التعايشي وممارسته بشكل مكثف في السلوك الإعلامي لمختلف وسائل

الإعلام، لأنه يعتبر جزءا لا يتجزأ من مشروع حوار الحضارات، وبديلا استراتيجيا لفكرة صدام الحضارات، التي تحمل أفكارا عدمية انتحارية، رغم تضمنها لقيمة وجودية تدافعية هي قيمة الصراع.

الاتصال والتعايش:

لقد طال الانقلاب التكنولوجي ميادين عدة، لكن بعض جوانب التقدم التكنولوجي كان له تأثير قوي بشكل خاص على العلاقات بين الأفراد والشعوب، والمنحى الأوضح في هذا المجال يتعلق بالاتصال الذي أصبح أسرع من الماضي بما لا يقاس، والذي يستخدم كذلك قنوات جديدة متعددة، أصبحت المعلومات فورية، وهي تنتقل بواسطة الكلمات كما بالصور وتنتشر في العالم بأسره: الراديو، التلفزيون، الهواتف المحمولة، البريد الإلكتروني الإنترنيت... حيث كنا نشكو من قلة المعلومات، نجد اليوم أنفسنا نغرق في وفرتها، إن إحدى نتائج هذا التحول تتمثل في أن شعوب الكرة الأرضية تتخالط وتتعايش أكثر فيما بينها، فالكلمات والصور تؤلف بين الناس[24].

هناك مجموعة من الشروط الإعلامية يتوجب استيفاؤها من أجل تمكن ملايين الأفراد من التواصل، أو بالأحرى من التوصل إلى التعايش في عالم أصبح فيه كل فرد يرى كل شيء ويعلم بكل شيء، وحيث الاختلافات اللسانية والفلسفية والسياسية والثقافية والدينية جعلت من التواصل والتعايش أمرين أكثر عسرا. إن الهدف لم يعد التقاسم مع الآخرين ما هو مشترك فيما بيننا بقدر ما هو تعلم كيفية تدبر الاختلافات التي تفصلنا، وذلك على المستوى الفردي والجمعي على حد سواء[25].

ومع ظهور الاتصالات المنفتحة على الجميع، فإن القرن الواحد والعشرين هو قرن التعايش، بمعنى تأمين الشروط المطلوبة لعيش مشترك بين وجهات نظر مختلفة في عالم صغير للغاية يعلم فيه الأفراد كل شيء، ولا يقوى المرء على الإفلات منه[26].

إن التطور المتسارع في تكنولوجيات الإعلام والاتصال يفرض علينا التحدي التالي: كيف السبيل إلى منع الإعلام والاتصال من أن يصبحا أداتي تسريع لسوء التفاهم والكراهية بعد أن كانا بالأمس عاملي

[24] تزفيتان تودوروف، الخوف من البرابرة، ما وراء صدام الحضارات، تر: جان ماجد جبور، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، أبو ظبي، ط1، 2009، ص 8.

[25] دومينيك وولتون، الإعلام ليس تواصلا، دار الفارابي، بيروت، ط1، 2012، ص13.

[26] نفس المرجع، ص 14.

تقارب؟ وذلك تماما لأن كل الاختلافات والغيريات باتت مرئية، في سياق أصبحت فيه القيم التحررية للإعلام والاتصالات كلية الوجود ومتعددة اللغات على نحو مرعب[27].

إن تنوع المتلقين قد جعل من النظرية السائدة في مجال الاتصال متقادمة، فلا زيادة المعلومات التي تبث، ولا سرعة انتقالها بطريقة أكثر مساواة تؤديان إلى زيادة في التواصل والتفاهم البيني، والمتلقون، أي الأفراد والشعوب يقاومون المعلومات والأخبار التي تزعجهم، ويودون التمكن من تقديم رؤاهم الخاصة للعالم، لقد أصبح تعذر التفاهم الأفق المتاح للتواصل، الأمر الذي يجبر على التفاوض المستمر للتمكن من التعايش[28].

بالأمس وعن طريق استخدام تقنيات محدودة، كانت الرسائل المتبادلة تعني جمهورا متجانسا، أما اليوم فالرسائل لا تعد ولا تحصى، والتقنيات شبه كاملة، والمتلقون الذين هم في تزايد مستمر متباينون متحفظون، والسبب في ذلك لا يعود إلى اللغات وحسب، وإنما إلى تصادم التصورات والثقافات والرؤى إلى العالم، في مثل هذه الحالة لم يعد كافيا أن نسرّع من وتيرة إنتاج وتوزيع المعلومات من أجل تحقيق تواصل أكبر، لا بل من شأن ذلك تضخيم النزاعات، ولأول مرة في التاريخ يحدث مثل هذا الفكاك. فكيف السبيل إلى التعايش عندما يغيب التفاهم؟ وعندما تظهّر الاختلافات للعيان بواسطة تقنيات أرقى باستمرار؟ أو عند التوصل إلى تنظيم التعايش بين وجهات نظر مختلفة، مع الواجب المزدوج المتمثل في احترام تنوع الهويات والإطار المشترك للتواصل في الوقت نفسه، أو أن ينطوي هؤلاء أو أولئك على أنفسهم ضمن معازل أو جماعات قوامها هويات متنازعة تقريبا تسمح لنا أن نتكهن كم أن العولمة تزيد من هذا الخطر[29].

تنفتح مرحلة تفاوض، حيث يتفاوض الفرقاء بحرية ومساواة تقريبا من أجل التوصل إلى نقطة اتفاق، وعندما تكون النتيجة إيجابية فإنها تسمى تعايشا، مع ما يتصف به التعايش من نقاط قوة ونقاط ضعف، التفاوض والتعايش باعتبارهما إجراءين لتلافي عدم الاتصال وعواقبه العدوانية في غالب الأحيان[30].

ولكن كيف السبيل إلى التعايش سلميا في عالم يرى فيه الجميع كل شيء ويعلم بكل شيء، وحيث الاختلافات أوضح وأقل قابلية للتفاوض؟ من هنا وجب التحول من فكرة التقاسم إلى فكرة التفاوض

[27] نفس المرجع، ص 16.

[28] نفس المرجع، ص 20.

[29] دومينيك وولتون، مرجع سابق، ص 21.

[30] نفس المرجع، ص 26.

والتعايش، الأمر الذي يجعل الصلة بين الاتصال والديمقراطية أوضح بكثير، ما هي الديمقراطية بالفعل إن لم تكن التفاوض والتعايش السلمي بين وجهات نظر غالبا ما تكون متصارعة؟[31]

إن الاتصال إشكالية من إشكاليات التعايش والرابط الاجتماعي، وينتمي إلى مجتمع يتصف بالحركة والتفاعل والسرعة والحرية والمساواة، وهذا ما يؤكده "دومينيك وولتون" الذي يرى أن الاتصال المرتكز على التعايش يمكنه الإسهام في تجديد الشروط النظرية والعملية للمجتمعات المفتوحة الشديدة الهشاشة والمعرضة لرياح العولمة العاتية المفتقدة إلى بوصلة، ومن شأن إعادة تقييم مفهوم التعايش أن يساعد على تجديد التفكير في طبيعة الرابط الاجتماعي في المجتمعات المعاصرة حيث التفاعلات بين الفرقاء أكثر عددا وأشد تناقضا، إن تشجيع التعايش ضمن التواصل وأداء الفضاء العمومي لوظيفته، يعني إذا التفكير أيضا في ضرورة إدارة الاختلافات الملازمة لمجتمعاتنا والإبقاء على مبدأ الوحدة في آن، مع الإبقاء على التوجه الآيل إلى تجديد الخصائص المعاصرة للرابط الاجتماعي، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى ما هو الرابط الاجتماعي إن لم يكن هذه الأعجوبة المتمثلة في إمكانية وجود ترابط فيما بين أفراد ومجموعات وطبقات اجتماعية ضمن مجتمع ما يحتوي، فضلا عن ذلك، ما يفرقهم عن بعضهم البعض؟

خلاصة القول إن التواصل والتعايش والرابط الاجتماعي مكونات للحداثة ولرؤية جديدة للزمكان، وإن التواصل يعكس تماما الطموحات المتناقضة لمجتمعاتنا المعاصرة حيث يتبنى المرء قيما متناقضة في غالب الأحيان، ألا وهي الحرية والمساواة، الانفتاح والهوية، العولمة والإقليمية، لذا فإن المفهوم المعياري للتعايش خير معبّر عن خصائص المجتمع المعاصر، باعتبار أن التعايش يشكل رمزا لتوجه معياري هادف إلى التأليف بين قيم وأبعاد متناقضة[32].

إن التعايش مشروع سياسي ينبغي بناؤه لتلافي الانغلاق على الهوية، ههنا نجد الفرق المعياري بين وسائل الإعلام الجماهيرية والوسائل المجزأة، فالأولى أكثر قابلية لأن تعكس التنوع في المجتمع، مع ضمانها للهوية الوطنية التي لا غنى عنها لمقاومة عدم استقرار الأمة، بيد أن الوسائل الثانية أكثر ملاءمة لتجزئة المجتمعات إلى جماعات وطوائف، بما في ذلك ما وراء الحدود الوطنية، واضعة جانبا مسألة الرباط الاجتماعي وإشكالية الهوية الوطنية[33].

[31] نفس المرجع، ص 31.

[32] دومينيك وولتون، مرجع سابق، ص 37.

[33] نفس المرجع، ص 103.

إن نموذج الديمقراطية في جميع الأحوال هو نموذج تعايشي، علاوة على ذلك يشاهد في تطور النظرة إلى الرابط الاجتماعي، لقد كان هذا الأخير بالأمس أكثر تراتبية ووحدويا بما لا يقاس، أما اليوم فهو أكثر مساواة وبالضرورة أكثر تعددية. كذلك توجد إشكالية التعايش هذه في الواقع الراهن للمجتمع الفردي الجماهيري حيث يسعى كل واحد لإرساء تعايش بين القيمتين المكونتين والمتضاربتين للحداثة: الحرية والمساواة[34].

والمسألة الأخرى لمجتمعاتنا المفتوحة تبقى مسألة الغيرية، إن الآخر يجذب ويخيف في آن، غير أن الآخر غيّر مكانته، بقد كان بالأمس بعيدا في مكان آخر مختلف، وغالبا في وضع تراتبي، أما اليوم فهو ههنا في قلب الحداثة، وحتى لو لم تكن هناك مساواة، فإنه عازم على المحافظة على اختلافاته، لذلك ينبغي السير على ساقين: القبول بالهوية وتنظيم التعايش داخل فضاء أرحب. إن إدارة الغيرية تعني من ناحية أخرى حقوقا وواجبات متبادلة، إلا أنها نموذج التعايش يرتبط بمفهوم الثقة، فالتعايش يفترض الثقة وإلا ظهر الشك، مصدر كل أشكال انطواء الجماعات على نفسها، غير أن الثقة تتطلب وقتا، وبالتالي لا تعايش من غير ثقة وتسامح ووقت. إننا في صلب النموذج الديمقراطي المتوجب بناؤه، والذي ينبغي عليه بناء الرباط الاجتماعي وتنظيم تعايش الهويات وتعليم التعايش في إطار المجتمع الدولي في الوقت نفسه[35].

ونظرا لارتباط مسألة التعايش بنموذج الاتصال المعاصر، فإنها لا توجد داخل الدول -الأمم وحسب، وإنما أيضا، وربما بنحو أوضح على مقياس العولمة، فمن الناحية الاجتماعية أخذ التنوع الثقافي في الاعتبار، لاسيما منذ التوقيع في اليونسكو على معاهدة احترام التنوع الثقافي التي تعترف بالتنوع الثقافي وبالأفق المعياري للتعايش الثقافي الذي ينبغي بناؤه. ونحن هنا في صلب نموذج الاتصال القائم على احترام الهويات وتنظيم التعايش، ومع بقاء التحدي هذا نفسه على الدوام، كيف السبيل إلى تلافي أن يؤدي الاعتراف بالاختلافات إلى ولادة نزعة الانطوائية الجماعية على الذات؟ وكيف السبيل إلى المحافظة على صلة اندماج فيما يتعدى مجرد التعايش؟ وبكلام آخر يعود كل النقاش حول تنظيم التنوع الثقافي داخل المجتمع الدولي ليلتقي من جديد مع إشكالية النموذج التعايشي في الاتصال. وفي كل مرة مع هذا الشرط على كلا المستويين: الوطني والعالمي لا اعتراف بالهويات من دون تعزيز الإطار المشترك، لعدم الوقوع في التجزئة والانطوائية الجماعية على الذات[36].

[34] نفس المرجع، ص 106.

[35] دومينيك وولتون، مرجع سابق، ص 107.

[36] نفس المرجع، ص 108.

إن نشوء عالم متعدد الأقطاب، ووصول قوى البريكس (البرازيل، روسيا، الهند، الصين وجنوب إفريقيا) ودول أخرى، وتكاثر وسائل الإعلام، يجبر تحت طائلة نشوء نزاع ثقافي وسياسي، على إدخال تعددية ضرورية في الرؤية إلى العالم وفي وسائله الإعلامية. فالعالم لا يُرى ولا يفكر فيه بالطريقة نفسها، لذلك لا بد من إيلاء اهتمام أكبر للتنوع في وجهات النظر، وبالتالي للأخبار عن العالم ولثقافات العالم، لاسيما بعد أفول عهد الشيوعية عام 1990 ونشوء عالم متعدد الأقطاب، ولا بد هنا لهذا العالم أن يتعلم كيف يتعرف على بعضه البعض، ويحترم بعضه بعضا ويتعايش، هذا هو التحدي. ولكن ثمة تناقض في الأمر، فالقنوات والنظم التقنية هي قنوات ونظم عالمية، ومع ذلك ليس من ضمانة للتعددية، وبكلام آخر لا شيء يقول مسبقا أن القرية الكونية ستكون قرية التنوع، لأنه يمكن أن تكون قرية المعايير الموحدة المتعلقة بتركز الصناعات الثقافية والاتصالات[37].

إن النموذج التعايشي في ظل تطور تكنولوجيات الاتصال ليس ضربا من الملائكية، وإنما يحاول على كل المستويات ابتكار شيء آخر يقع بين النموذج الوحدوي الترابي ومجرد تجاوز المصالح والرؤيا إلى العالم. فالتعايش، سواء كانت المسألة متعلقة بالتواصل أو بنماذج التنظيم السياسي أم بالكوكب أم بالتنمية المستدامة، أو بالصناعات الثقافية وصناعة الاتصالات، فإنها على الدوام مسألة احترام تعددية وجهات النظر حول العالم والحاجة إلى مبدأ مشترك، إن نموذج التعايش يتخطى إذا العلاقات بين الإعلام والتواصل، ويتعلق بأحد الرهانات المعيارية الكبرى للتنظيم الداخلي للمجتمعات المعاصرة، ولتعايش هذه الأخيرة داخل الأمة[38].

لقد أدت الطفرة التكنولوجية إلى عولمة الإعلام، غير أنه ظهر جليا أن هذه الطفرة غير كافية لإيجاد تفاهم أفضل، حتى لو كان الكثيرون قد فكروا عكس ذلك لثلاثين سنة خلت، عندما أنشئت السي أن أن على سبيل المثال عام 1980، ساد الاعتقاد بأنها ستوحد رؤى العالم وتقيم وجهة النظر الغربية، والنتيجة معروفة، في الحقيقة كانت سي أن أن ولا تزال مرتبطة بنموذج وحدوي، لقد أجبر تكاثر القنوات الإخبارية لاسيما العربية منها على إرساء تعددية حقيقية (قناة الجزيرة مثلا)، وبانتظار قنوات أخرى في آسيا وأمريكا اللاتينية، يجري الانتقال أينما كان من النموذج الوحدوي إلى النموذج التعايشي[39].

[37] نفس المرجع، ص 109.

[38] دومينيك وولتون، مرجع سابق، ص 110.

[39] نفس المرجع، ص 113.

إن عولمة المبادلات في مجال المعلومات والمعارف يجبر على أن يبقى هؤلاء وأولئك متنبهين للثقافات الأخرى، ذلك هو الرهان حول التنوع الثقافي: التوصل إلى تنظيم التعايش الثقافي، أي العلاقات بين الهوية والغيرية، إذ تكفي رؤية الخلافات المتنامية المتعلقة بعولمة الإعلام لفهم أنه كلما وجدت رسائل أخرى في التداول ستزداد رؤيا العالم المتناقضة[40].

إن الاتصال تدريب على التعايش في عالم من الأخبار والمعلومات تحتل مسألة الغيرية فيه محلا مركزيا، وإذا كانت الحرية الإعلامية غير مكتسبة بيسر على الدوام، فإن التنظيم السلمي لوجهات نظر متناقضة ليس أقل يسرا، وفي كل الأحوال هما مسألتان سياسيتان، بمعنى أنهما متعلقتان بالحرب والسلم بين البشر، وفي هذا الصدد فإن تكنولوجيا الاتصال ضرورية، غير أنها لا تكفي لحل هذا التناقض: تقاسم ما هو مشترك بيننا وتعلم كيفية إدارة ما يفرقنا سلميا على حد سواء، فهذه المقاربة لا تنفصل عن الاعتراف بالغيرية وبالسياسة،لأنها تطرح على البحث المسألة المركزية لكل مجتمع[41].

صدام الحضارات:

حظيت نظرية صدام الحضارات باهتمام واسع من طرف الباحثين والأكاديميين ورجال السياسة والإعلام على الصعيد العالمي، كما شغلت قضية صدام الحضارات المنظمات الإقليمية والدولية كاليونسكو والإيسيسكو ومعاهد البحث والدراسات السياسية والإستراتيجية ومراكزهما، إذ عقدت مئات الندوات والمؤتمرات العلمية في مختلف أرجاء العالم لتدارس موضوع صراع الحضارات، وقد نتج عن هذه المتابعة المكثفة للموضوع تراكم هائل من المقالات والدراسات والكتب التي تتناول بالتحليل نظرية صراع الحضارات[42].

إن هنتجتون يعرف الحضارة بأنها: "أوسع مستويات الهوية التي يمكن للمرء أن ينتمي إليها"، وقليل جدا من الأشخاص هم الذين بإمكانهم أن ينتموا بأجسادهم إلى مفهوم واسع كمفهوم الحضارة، فهم ينشدون بدلا من هذا هويات ضيقة كالأمم أو الجماعات العرقية أو الدينية، وعلى الرغم من الإلحاح الدائم على الهوية الأوربية في هذه الآونة، إلا أن التحقيقات التي قامت بها المفوضية الأوربية تبين أن

[40] نفس المرجع، ص 131.

[41] دومينيك وولتون، مرجع سابق، ص 144.

[42] المحجوب بن سعيد، الإسلام والإعلاموفوبيا، الإعلام الغربي والإسلام، تشويه وتخويف، دار الفكر، دمشق، 2010، ص73.

ما يزيد عن 70 بالمائة من سكان كافة الدول الأوربية ينظرون إلى أنفسهم في المقام الأول في ضوء انتمائهم إلى أمم، بينما تأتي الهوية الأوربية في مرتبة تالية[43].

معظم الحروب التي وقعت بعد عام 1945 كانت حروبا داخل حضارات، حروب كوريا، وفيتنام، وكمبوديا، والصومال، والعراق، وإيران، والكويت، فأطول الصراعات وأكثرها دموية في الشرق الأوسط لم تنشب بين العرب واليهود، ولكن بين المسلمين، وهي الحرب بين العراق وإيران، كما استخدم العرب العراقيون الغاز السام ضد الاكراد وليس ضد غير ذوي الملة[44].

وعلى حد قول "هنتنجتون" فللإسلام حدود مخضبة بالدماء، وهذه المقولة ليست فقط رمزية تاريخية، ولكن لها خطورتها أيضا، فالإسلام والمسيحية عاشا جنبا إلى جنب لمدة 1400 سنة تقريبا، دوما كجيران، وفي معظم الوقت كخصوم، وكثيرا جدا كأعداء، وفي الواقع من الجائر اعتبارهما شركاء، حيث أنهما يشتركان في نفس الموروث اليهودي الشرقي، وهما في آن واحد تجمعهما معرفة قديمة، كما أنهما عدوان لدودان بالوراثة، والصراعات بينهما مريرة بوجه خاص، وذلك بالتحديد بسبب أصولهما المشتركة، فزيادة الفرقة بين الجانبين لا ترجع لما بينهما من اختلافات بقدر ما ترجع إلى أوجه الشبه[45].

وإذا ما اعتبرنا إشارة هنتنجتون إلى حدود الإسلام المخضبة بالدماء حقيقة لا مراء فيها، فلن نتمكن أبدا من دمج العدد المتزايد من السكان المسلمين في أوربا، وفي هذه الحالة ستتحقق نبوءة هنتنجتون بوقوع الصدام بين الحضارات لا بالمحك العسكري الذي يقيس القوة بين الغرب وما عداه، أو من خلال حصار جديد لفيينا، ولكن كحرب عصابات دائمة في ضواحي مدن أوربا الكبرى التي تحولت إلى أحياء للأقليات، وهذه هي الخطورة الحقيقية للصدام بين الحضارات والحيلولة دون وقوع هذا الأمر هو أكبر التحديات التي تواجه الساسة الاوربيين في يومنا هذا[46].

يوجد بالفعل ما يتراوح بين 15 و20 مليون مسلم في الاتحاد الأوروبي، ولا زالت أعدادهم تتزايد بسبب استمرار الهجرة، وتشير التقديرات إلى 60 مليون مهاجر على مدار 25 عاما، ولذا لا يمكن تصور الإتحاد الأوربي بدون عنصر "الإسلام الأخضر". أما التساؤل عما إذا كان بالإمكان إقامة "البيت الأوربي" على غرار نموذج الحمراء رمز تعدد الثقافات في الأندلس، فهو تساؤل حاسم بالنسبة

[43] انجمار كارلسون، الإسلام وأوروبا، تعايش أم مجابهة، تر: سمير بوتاني، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ط1، 2003، ص 170.

[44] نفس المرجع، ص 169.

[45] انجمار كارلسون، مرجع سابق، ص 171.

[46] نفس المرجع، ص 172.

لمستقبل أوربا، وقد ازدادت حدة العنصرية وعدم التسامح والقومية الضيقة عبر أوربا كرد فعل للمستوى الحالي للهجرة، وهو ضئيل بالمقارنة بما يتوقع مستقبلا[47].

يقول "أنجمار كارلسون:"إذا أخفق اندماج المهاجرين ذوي الجذور الإسلامية، وشعروا أنهم يتعرضون لضغط ديني، وأجبروا على العزلة في أحياء خاصة بهم وهمشوا اجتماعيا، مع ارتفاع معدلات البطالة، فسيكون علينا أن نتحسب خشية أن تظهر سرا مدارس متطرفة لتعلم القرآن في الضواحي التي يقطنها المهاجرون، يحض مدرسوها تلاميذهم على أن يحاربوا بكل ما أوتوا من قوة ما يعتبرونه مجتمعات أوربية طاغية. وفي هذه الحالة فإننا لن نرى إسلاما أوربيا حديثا متسامحا، ولكننا سنرى بدلا من ذلك تطور العزلة الإسلامية التي تساندها القوى المتطرفة في العالم الإسلامي، والأئمة المتطرفون في كافة أنحاء أوربا يحاولون بالفعل الآن استغلال المشاكل النفسية والثقافية والمادية للمهاجرين المسلمين لمآربهم الخاصة، ويقوى من هذا الاتجاه لديهم وجود ساسة من أمثال "جون ماري لوبان"، و"جورج هايدر" و "بياجير سيجار" الذي ظهر كنتيجة لما دعوا إليه من انقسام في فرنسا والنمسا والدانمارك. وإذا ما سارت التطورات في هذا الاتجاه، فلا بد أن نضع في الحسبان أن التنظيمات الإسلامية المسلحة سوف تحاول أيضا أن تواصل صراعها مع العالم الغربي في أوروبا، والذي تعتبره منبع كل الشرور"[48].

الإعلام الغربي وصدام الحضارات:

استخدم الإعلام الغربي عدة وسائل لتشويه صورة الإسلام والمسلمين لدى الرأي العام الغربي، ومن بين هذه الوسائل: اللجوء إلى استعمال العناوين المثيرة للرفع من مبيعات الصحف والمجلات، وتحقيق أعلى نسبة من المشاهدة بالنسبة إلى البرامج التلفزية والأفلام السينمائية، والبث المتكرر وعلى مدار الساعة لصور أحداث العنف والربط بينها وبين الإسلام والإرهاب. ففي الصحافة المكتوبة تم استخدام تعابير مجازية مكررة عند الإشارة إلى المسلمين مثل: الطابور الخامس، حصان طروادة، العدو من الداخل، وحوش، برابرة متعصبون، كما تم ترويج مصطلحات خارج سياقها الحقيقي مثل الأصولية، التطرف، الإرهاب الإسلامي، الخطر الإسلامي، الخطر الأخضر...إلخ. وفي مجال التلفاز حيث للصورة سلطة واسعة وتأثير خفي وعميق، تم ترويج صور السيف والقرآن والإعلام وذبح الأضحيات وختان الأطفال، الازدحام في موسم الحج، والنساء المحجبات، والأثرياء من المسلمين في قصورهم داخل العالم الإسلامي وفي المنتجعات الغربية، وغيرها من الصور التي تمارس تأثيرا في

[47] نفس المرجع، ص 174.

[48] انجماركارلسون، مرجع سابق، ص 174.

المتفرج، وتدفع به إلى استخلاص استنتاجات واتخاذ مواقف شعورية وغير شعورية من الإسلام والمسلمين ذات توجه سلبي واحتقاري[49].

لقد ركز الإعلام الغربي في معظم وسائله على إبراز عناوين مثيرة في إطار حملة دعائية سعت بكل التقنيات الحديثة للإعلام والاتصال، وبتمويل ضخم إلى ترسيخ الصورة النمطية المشوهة عن الإسلام في مخيلة الإنسان الغربي، وصورت الإسلام كما يلي:

- الإسلام دين عنف وإرهاب وانتشر بالسيف.
- الإسلام يضطهد المرأة ويظلمها في الميراث، والمسلمون يتزوجون بأربع نساء.
- المسلمون يعبدون إلها مختلفا، ولا يؤمنون بعيسى.
- الفتوحات الإسلامية مجرد حملات استعمارية ذات طابع اقتصادي.
- الإسلام ضد حرية الاعتقاد، وضد الديمقراطية وحقوق الإنسان.
- الإسلام يعادي الحضارات الأخرى وضد السامية.
- الإسلام دين وحشي في تطبيقه للحدود والعقوبات.
- يحرم الفنون من موسيقى ورسم ونحت، وهو دين رجعي.

محمد رجل شهواني ومقاتل ومؤلف للقرآن[50].

تعايش الحضارات:

على عكس فكرة صراع الحضارات، دعت محافل ومنظمات كثيرة إلى حوار الحضارات منذ الستينات من القرن العشرين، كما أن هذه الدعوة إلى الحوار تعد سمة من سمات النصف الثاني من القرن العشرين، ويلاحظ أنه بعد سنة 2001 التي أعلنتها منظمة الأمم المتحدة سنة للحوار بين الحضارات، شكلت قضايا الحوار بين الحضارات والثقافات والديانات محور العديد من المؤتمرات والاجتماعات التي عقدتها الأمم المتحدة، وقد صدرت عن تلك المؤتمرات قرارات وإعلانات وبرامج كان لها أثر بارز، ولاسيما فيما يتعلق بتأكيد وجوب تسخير الحوار لخدمة جملة من الأهداف نذكر منها: تعزيز أوجه التشابه والقيم المشتركة مع الحرص على احترام أوجه الاختلاف، والعمل على تبني

[49] المحجوب بن سعيد، مرجع سابق، ص 96.

[50] المحجوب بن سعيد، مرجع سابق، ص 97.

توجه وتعزيزه يروم استئصال آفة الفقر والتمييز العنصري وكراهية الأجانب والإرهاب والتطرف وعدم التسامح، باعتبار ذلك واجبا أخلاقيا على كل فرد.

وبذلك تشكل تيار قوي ما فتئ يتنامى على الصعيد الدولي يسعى جاهدا إلى تعزيز أطروحة مفادها أن الخيار البديل لصدام الحضارات هو أن تتفاعل الحضارات الإنسانية بعضها مع بعض، بما يعود على الإنسان والبشرية جمعاء بالخير والفائدة، على اعتبار أن التفاعل عملية صراعية ولكنها متجهة نحو البناء والاستجابة الحضارية لتحديات الحاضر، عكس نظرية صدام الحضارات التي هي مقولة صراعية تدفع الغرب بإمكاناته العلمية والمادية إلى ممارسة الهيمنة، ونفي الآخر والسيطرة على مقدراته وثرواته تحت دعوى وتسويغ أن نزاعات العالم المقبلة سيتحكم فيها العامل الحضاري، وأن مجالها الجغرافي سيكون بين العالم الإسلامي والعالم الغربي[51].

إن تعدد البشر واختلافهم في الآراء والمعتقدات المعرفية جعلا من التعايش والحوار وسيلة من وسائل التقارب والتعارف وتبادل المعارف، لأنه كلما اتسعت مساحة المعرفة المتبادلة بين الشعب والأمم على مختلف المستويات، ضاقت مساحة الخلاف وانزوى الاختلاف، وتراجعت القدرة على التأثير السلبي الذي يلحق أفدح الأضرار بالمجتمعات الإنسانية، ولذلك ينطلق المنظور الإسلامي للحوار من غايات سامية تدعو إلى العدل والإنصاف والقبول بالاختلاف مع الآخر والتعايش والتسامح معه، انسجاما مع ضرورات الوئام البشري التي تتطلبها الحياة، واحتياجاتها الاجتماعية، وتفرضها طبيعة العمران البشري والأخوة الإنسانية[52].

الإعلام وتعايش الحضارات:

تم تنظيم مؤتمر "الحوار بين الثقافات والحضارات في ستوكهولم بالتعاون مع مصر، وبدعم من اللجنة الأوربية المتوسطية "يوروميد" (Euromed) والمفوضية الأوربية، وتم إقرار برنامج عمل من خمس نقاط في مجالات عدة، من بينها المجال الإعلامي الذي تضمن ما يلي:

-إشاعة المعرفة عن الأرضيات المشتركة والتفاعل بين الثقافات والحضارات، وتعزيز الاعتراف والاحترام المتبادل للتقاليد وأنظمة التقييم المختلفة، وإقامة شبكات التواصل والحوار المنتظم، وكانت العادة في السابق التركيز على الفروق والاختلافات بين الثقافات، بينما أصبح النهج الآن إبراز القيم المشتركة والاحترام المتبادل في برامج وسائل الإعلام.

[51] نفس المرجع، ص 79.

[52] المحجوب بن سعيد، مرجع سابق، ص 81.

- تطوير تعاون وسائل الإعلام الإذاعية والسمعية -البصرية والمنشورة، وبشكل خاص لمجابهة التصورات السلبية والأفكار المسبقة وتحفيز النقاش العام، وينبغي أن يشمل ذلك أيضا النشاطات في مجال التبادل والتدريب والإنتاج المشترك استنادا إلى استنتاجات مؤتمر سالونيك عن التعاون السمعي -البصري، وفي هذا السياق جرى التركيز على أهمية البرنامج الأوربي المتوسطي "يوروميد السمعي البصري) برنامج "وسائل الإعلام المتوسطي ميدميديا" (Med Media) للتدريب[53].

وقد تم التأكيد على تبادل الصحفيين والعاملين في وسائل الإعلام وتأهيلهم، وخاصة في بلدان حوض المتوسط، مع التركيز على هيئات التحرير المحلية ووسائل الإعلام المحدودة الموارد، ولا بد من إعطاء الأولوية لتبادل البرامج التلفزيونية، ومن ضمنها المواد غير الإخبارية كالبرامج والتمثيليات العائلية مثلا، وتقليل البرامج ذات الأحكام النمطية المقولبة[54].

الجهود الإعلامية في العالم الإسلامي لتحقيق التعايش:

لا بد من الاستعانة بوسائل الإعلام الجماهيرية في دول العالم الإسلامي للاضطلاع بدورها في تنفيذ خطة الرد على حملات التشويه الإعلامي للإسلام نظرا لما تتمتع به من ميزة التنوع والتعدد وفي هذا الصدد يقترح ما يلي:

- إنشاء قنوات فضائية إسلامية تبث برامجها بمختلف اللغات الأجنبية وتساهم الدول الإسلامية في برامجها وتمويلها عن طريق البنك الإسلامي للتنمية.
- استثمار الفضاء الإعلامي في الغرب من أجل عرض قضايا العالم الإسلامي.
- استئجار ساعات معدودة للبث الإذاعي والتلفزي في بعض القنوات المستقلة بالبلدان الغربية.
- تشجيع قادة العالم الإسلامي في الغرب على إنشاء صحف ومجلات باللغات الأجنبية، وربط قنوات الاتصال مع الصحفيين والمفكرين المتعاطفين مع قضايا العالم الإسلامي في الغرب.
- استغلال الأنترنيت وشبكات التواصل الاجتماعي من خلال إنشاء مواقع وصفحات خاصة تهدف إلى تحقيق التعايش بين المسلمين والغرب وتصحيح الأفكار والمعلومات والمفاهيم الخاطئة عن الإسلام، والاستفادة من خدمة البريد الإلكتروني، وإقامة ندوات حية يتناقش فيها علماء ومفكرون مسلمون مع الغربيين المهتمين بالإسلام وحضارته[55].

[53] انجماركارلسون، مرجع سابق، ص 190.

[54] نفس المرجع، ص 191.

[55] المحجوب بن سعيد، مرجع سابق، ص 102.

الاتصال والتعايش اللغوي بين الحضارات:

يعتبر التعايش اللغوي أحد أوجه التعايش الإنساني داخل الحضارات وفيما بينها، غير أن التعدد اللغوي يمكن أن يكون عائقا أمام الاتصال بين الأفراد من ثقافات وحضارات مختلفة، ورغم أن فعل الترجمة الذي يعتبر أحد ركائز الاتصال التعايشي أصبح بفضل التطور التكنولوجي متاحا من وإلى أي لغة، فإن الإنجليزية في الوقت الحالي أضحت هي اللغة المشتركة التي يمكن أن نعتبرها أداة اتصالية عالمية لتحقيق التعايش بين اللغات والثقافات والهويات عبر العالم، وفي هذا الصدد يرى صمويل هنتنجتون في كتابه "صدام الحضارات أن الناس الذين يحتاجون إلى الاتصال فيما بينهم عليهم أن يجدوا الوسيلة لذلك، على أحد المستويات يمكنهم الاعتماد على محترفين مدربين تدريبا خاصا من الذين أصبحوا مجيدين للغتين أو أكثر للعمل كمترجمين ومفسرين، وهذا بالطبع شيء صعب ومكلف ويستغرق وقتا طويلا، وهكذا ظهرت اللغات المشتركة: اللاتينية في العالم الكلاسيكي والقرون الوسطى، الفرنسية لعدة قرون في الغرب، السواحيلية في مناطق كثيرة من إفريقيا، الإنجليزية في معظم العالم في النصف الثاني من القرن العشرين. يحتاج الدبلوماسيون ورجال الأعمال والعلماء والسياح والخدمات الخاصة بذلك والطيارون ومرشدو حركة الطيران... إلى وسيلة معينة للاتصال الكفء مع بعضهم البعض، ويفعلون ذلك على نطاق واسع بالإنجليزية، وبهذا المعنى فإن الإنجليزية هي وسيلة العالم للاتصال بين الثقافات، مثلما التقويم الميلادي هو وسيلة العالم لحساب الزمن، والأرقام العربية هي وسيلة العالم للحساب، والنظام المتري وسيلة للقياس في معظم الأنحاء[56].

واستخدام اللغة الإنجليزية على هذا النحو يعتبر على أية حال اتصالا ما بين الثقافات، وهو يفترض مسبقا وجود ثقافات منفصلة، اللغة المشتركة وسيلة للتغلب على الفروق اللغوية والثقافية وليست وسيلة لإزالتها، وهي وسيلة اتصال ولكنها ليست مصدرا للهوية والمجتمع، فعندما يتكلم مصرفي ياباني مع رجل أعمال أندونيسي بالإنجليزية فإن ذلك لا يعني أن أحدهما "يتأنجلز" أو "يتغرب". نفس الشيء يمكن أن نقوله عن السويسريين الذين يتكلمون الإنجليزية والفرنسية، ويحتمل أن يتفاهموا مع بعضهم البعض بالإنجليزية مثلما يتفاهمون بأي من لغتيهما الوطنيتين، ونفس الشيء... فالإبقاء على الإنجليزية كلغة تعامل واتصال قومي في الهند رغم مشروعات نهرو من أجل العكس، يشهد على رغبة الشعوب غير الناطقة بالإنجليزية في الهند في الحفاظ على لغاتها وثقافاتها، والحاجة إلى أن تظل الهند مجتمعا متعدد اللغات[57].

[56] صمويل هنتنجتون، صدام الحضارات، إعادة صنع النظام العالمي، تر: طلعت الشايب، ط2، 1999، ص 100.

[57] نفس المرجع، ص 101.

وهكذا فإن استخدام الإنجليزية للاتصال بين الثقافات يساعد على دعم الهويات الثقافية المستقلة للشعوب ويقويها، ولأن الناس تحديدا يريدون الحفاظ على ثقافاتهم الخاصة فإنهم يستخدمون الإنجليزية للاتصال مع أناس من ثقافات أخرى، والذين يتكلمون الإنجليزية في أنحاء العالم أخذوا تدريجيا يتكلمون إنجليزيات مختلفة، فهي تُطوّع محليا وتأخذ صفات خاصة تميزها عن الإنجليزية البريطانية أو الأمريكية، وقد يبلغ ذلك مدى بعيدا فتصبح إنجليزيات غير مفهومة لبعضها الآخر، كما هو الحال مع الإنجليزية الهندية وغيرها من الإنجليزيات، حيث أصبحت متضمنة في الثقافات المضيفة، ومن المرجح أن تستمر في تمايزها حتى تصبح لغات مرتبطة بتلك الثقافات، ولكن بشكل مختلف، كما خرجت اللغات الرومانية من اللاتينية[58].

على سبيل الختام:

إن الاتصال التعايشي هو قوة ناعمة لتحقيق التآلف والانسجام والتعاون بين الأفراد والجماعات والأمم المختلفة والمتنوعة، وثورة هادئة ضد إقصاء الآخر وتهميشه والتعالي والتكبر عليه، بل والاعتداء عليه أحيانا، وإذا دققنا النظر في ما يحصل اليوم في عالمنا المعاصر الذي يعج بالحروب والنزاعات والفتن، لوجدنا أن هذا النوع من الاتصال غائب عن المجتمعات، وإن وجد فهو ضعيف، فإذا كان الشارع في العديد من المجتمعات، خاصة الغربية منها، يشهد أشكالا مختلفة من الكراهية والعنصرية ورفض الآخر، فلأن الخطاب الإعلامي بمختلف وسائله ورسائله يغذي ويشحن مشاعر الحقد والعنصرية والعدوانية والخوف من الآخر، وهو ما يجعل البشرية تتجه أكثر فأكثر نحو صدام الحضارات الذي عانت منه كثيرا عبر تاريخها الطويل مثل الحروب الصليبية وكفاح الشعوب ضد الاحتلال والحرب الباردة، والصراع القائم حاليا بين الحضارة الغربية والحضارة الإسلامية، والذي يستخدم فيه الغرب مختلف وسائل الإعلام والاتصال من أجل شيطنة الإسلام، مما جعل المهاجرين ذوي الديانة الإسلامية في البلاد الأوربية يدفعون ثمن ذلك، وإذا اعتبرنا تكنولوجيات الإعلام والاتصال الجديدة - وعلى رأسها شبكات التواصل الاجتماعي- أدوات شبه محايدة، فإنها - وبنظرة تفاؤلية إيجابية- تعتبر اليوم فرصة فريدة من نوعها يمكن أن تستخدمها الشعوب في تفعيل الاتصال التعايشي على المستوى الكوني، وفي إذابة الجليد القائم بين الحضارات، لتتفاعل عبرها جميع اللغات والثقافات والديانات والهويات... بشكل بنّاء، وتكرس بواسطتها قيم الاحترام والتسامح وقبول الآخر،

[58] نفس المرجع، ص 102.

وتجسد حوار الحضارات وثقافة العيش المشترك التي يحتاج إليها عالمنا اليوم أكثر من أي وقت مضى.

المراجع

- القرآن الكريم.
- انجمار كارلسون، **الإسلام وأوروبا، تعايش أم مجابهة**، تر: سمير بوتاني، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ط1، 2003.
- تزفيتان تودوروف، **الخوف من البرابرة، ما وراء صدام الحضارات**، تر: جان ماجد جبور، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، أبو ظبي، ط1، 2009.
- حسين علي المصطفى، **أدبيات التعايش بين المذاهب**، بيسان للنشر والتوزيع والإعلام، بيروت، ط2، 2013.
- دومينيك وولتون، **الإعلام ليس تواصلا**، دار الفارابي، بيروت، ط1، 2012.
- صمويل هنتنجتون، **صدام الحضارات، إعادة صنع النظام العالمي**، تر: طلعت الشايب،دار سطور للنشر والتوزيع، بغداد، ط2، 1999.
- عبد الله جبر عليوي جبر الخطيب، **الإسلام والتعايش السلمي**، دار الكتب والوثائق، بغداد، ط1، 2017.
- المحجوب بن سعيد، **الإسلام والإعلاموفوبيا، الإعلام الغربي والإسلام، تشويه وتخويف**، دار الفكر، دمشق، 2010.
- محمد عمارة، **الإسلام والآخر، من يعترف بمن ومن ينكر من؟** مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، د.ت.
- هاني المبارك، شوقي أبو خليل، **الإسلام والتفاهم والتعايش بين الشعوب**، دار الفكر المعاصر، بيروت، 1996.
- آمال علاوشيش، **من الصدام إلى العيش المشترك**، مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة حسيبة بن بوعلي، الشلف، العدد 31، ديسمبر 2017.
- علي بن هادية وآخرون، **القاموس الجديد للطلاب**، الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، ط7، 1991.